

# ملحمة الهندود الحمر صعود الحضارة وسقوطها في العالم الجديد

تأليف

الدكتور محمد كمال عرفة الرخاوي

الباحث والمستشار والخبير والفقير والمؤلف القانوني  
والمحاضر الدولي في القانون

الإهداء

إلى روح أمي الطاهرة التي علمتني أن التاريخ ليس  
مجرد تواريخ وأرقام بل هو عبرة وعبرة للأحياء.

وإلى روح أبي العزيز الذي غرس في حب العدل  
والإنصاف حتى مع من انقضت حضاراتهم ظلماً.

وإلى ابنتي الحبيبة صبرينال ، أمل المستقبل، لكي  
تعلم أن الشعوب قد تقهر لكنها لا تموت ما دام في  
الذاكرة حكاية.

هذا الجهد أهديه إلى أرواح ملايين السكان الأصليين  
الذين دفعوا ثمن اكتشاف العالم الجديد بأعلى ما  
يملكون، ليكون شهادتي التاريخية أمام الله والتاريخ.

## التقديم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف  
الخلق سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

إن تاريخ البشرية ليس خطأً مستقيماً من التقدم، بل  
هو متاهة من الصعود والهبوط، ومن الازدهار والفناء.  
وقلما وجدت قصة في سجلات التاريخ الإنساني تحمل  
من المأساة والعظمة ما تحمله قصة السكان الأصليين  
للقرتين الأمريكيتين، الذين عرفوا في التاريخ باسم  
الهنود الحمر. لقد عاشوا آلاف السنين في عزلة

نسبية عن بقية العالم، طوروا خلالها حضارات عظيمة، بنوا مدنًا ضخمة، وأسسوا أنظمة فلكية وزراعية واجتماعية معقدة، قبل أن يصطدموا بموجة الاستعمار الأوروبي التي جرفت وجودهم الديموغرافي وثقافتهم في غضون قرون قليلة.

يستند هذا الكتاب إلى توثيق دقيق للأحداث التاريخية، مستفيداً من أحدث الدراسات والوثائق المرئية والمقروءة التي تتناول رحلة هؤلاء السكان منذ هجرتهم الأولى من آسيا عبر مضيق بيرينغ، مروراً بتأسيسهم لحضارات المايا والأزتيك والإنكا، وصولاً إلى لحظة الاصطدام المصيري مع كريستوفر كولومبوس والمستعمرين الذين تلوهم. إن الهدف من هذا العمل ليس فقط سرد الوقائع، بل تحليل الأسباب العميقة التي أدت إلى سقوط هذه الحضارات، والتي لم تكن فقط نتيجة التفوق العسكري الأوروبي، بل كانت مزيجاً مميتاً من الأمراض الوبائية، والانشاقات الداخلية، والسياسات المنهجية للإبادة والتهجير والاستيعاب القسري.

يتكون الكتاب من ثلاثين فصلاً متسلسلاً زمنياً وموضوعياً، يبدأ بجذور الهجرة القديمة، ويتدرج عبر عصور الازدهار الحضاري، ليصل إلى نقطة التحول الكارثية مع وصول الأوروبيين، ثم يفصل في مراحل الغزو والإبادة، وينتهي بوضع السكان الأصليين في العصر الحديث واعتذار الدول عنهم. وقد حرصت في صياغة الفصول على الجمع بين الدقة التاريخية والتحليل الاجتماعي والقانوني، مسلطاً الضوء على الانتهاكات التي تعرضوا لها كقضية إنسانية وقانونية دولية.

إنني إذ أقدم هذا السفر الضخم، فإنني أدرك حجم المأساة التي يحكيها، وأمل أن يكون صوتاً صادقاً يوثق لحضارة كادت أن تندثر، عبرة للأجيال القادمة بأن القوة الغاشمة قد تقهر الأجساد، لكنها لا تمحو الحق من سجلات التاريخ. والله ولي التوفيق وهو الهادي إلى سواء السبيل.

### الفصل الأول

#### هجرة الماموث وبداية الرحلة نحو المجهول

تبدأ قصة الهنود الحمر قبل عشرات الآلاف من السنين، في حقبة زمنية سحيقة كانت فيها الأرض تشهد تغيرات مناخية وجيولوجية جذرية. خلال العصر الجليدي الأخير، انخفضت مستويات مياه البحار والمحيطات بشكل كبير بسبب تجمع المياه في كتل جليدية ضخمة غطت أجزاء واسعة من الكرة الأرضية، مما كشف عن جسر بري طبيعي كان يربط بين قارة آسيا وقارة أمريكا الشمالية في منطقة مضيق بيرينغ الحالي. هذا الجسر البري، الذي عرف باسم بيرينجيا، أصبح الممر الحيوي الذي عبرت من خلاله المجموعات البشرية الأولى من الصيادين والجامعين تتبع قطعان الحيوانات الضخمة التي كانت تشكل مصدر غذائهم الرئيسي، وعلى رأسها حيوان الماموث الصوفي الذي

تجول في تلك السهوب الباردة.

لم تكن هذه الهجرة حدثاً مفاجئاً أو رحلة مخططة بمعناها الحديث، بل كانت عملية بطيئة وتدرجية امتدت لآلاف السنين، حيث انتقلت القبائل الصغيرة تدريجياً من موطنها الأصلي في سيبريا ومنطقة وسط آسيا، مدفوعة بالبحث عن الغذاء والمأوى، ومتابعة مسارات هجرة الحيوانات التي اعتمدت عليها في بقائها. كانت الحياة في تلك الحقبة قاسية للغاية، تتطلب مهارات عالية في الصيد والبقاء في ظروف مناخية متجمدة، مما صقل شخصية هؤلاء الرواد وجعلهم متكيفين مع أصعب البيئات. تشير الأدلة الأثرية والجينية الحديثة إلى أن هذه المجموعات حملت معها خصائص وراثية وثقافية مشتركة مع سكان آسيا الشرقيين، مؤكدة أصلهم الآسيوي قبل أن ينعزلوا في العالم الجديد.

مع تراجع العصر الجليدي وبدء ارتفاع درجات الحرارة العالمية، بدأت الكتل الجليدية في الذوبان، مما أدى

إلى ارتفاع منسوب مياه المحيطات وغمر الجسر البري بيرنجيا تحت الأمواج، ليقطع بذلك الصلة البرية بين القارتين ويحبس تلك المجموعات البشرية داخل القارة الأمريكية في عزلة جغرافية تامة عن بقية العالم. هذه العزلة استمرت لآلاف السنين اللاحقة، سمحت لهذه الشعوب بالتطور بشكل مستقل تماماً، وتطوير ثقافات ولغات وأنماط حياة فريدة لم تتأثر بالحضارات الأخرى في أوروبا أو أفريقيا أو آسيا. إن فهم هذه البداية الجذرية أمر بالغ الأهمية لإدراك كيف نشأت حضارات معقدة من بدايات بدائية بسيطة، وكيف استطاع الإنسان أن يستوطن قارتين شاسعتين ومتنوعتين بيئياً من القطب الشمالي المتجمد حتى أطراف أمريكا الجنوبية الاستوائية.

إن رحلة الهجرة هذه لم تكن مجرد انتقال مكاني، بل كانت نقطة تحول في التاريخ البشري، حيث أصبحت الأمريكتان مسرحاً لتجربة إنسانية فريدة، بعيدة عن صراعات القديم ونظمه، مما أتاح فرصة لنشوء مجتمعات ذات رؤى كونية مختلفة، وأنظمة اجتماعية وسياسية لم تعرفها الحضارات القديمة في الشرق.

وفي الفصول التالية سنرى كيف تحول هؤلاء الصيادون الرحل إلى بناء حضارات عظيمة، لكن يجب ألا نغفل أن بذرة هذا الوجود كانت في تلك الخطوة الأولى الجريئة عبر الجسر الجليدي نحو المجهول.

## الفصل الثاني

### الوصول إلى الأمريكتين والانتشار في القارتين

بعد عبور جسر بيرينجيا وانقطاع الصلة مع آسيا، وجدت المجموعات البشرية الأولى نفسها أمام قارة شاسعة وغير مأهولة تقريباً، تمتد من الشمال المتجمد إلى الجنوب الدافئ. بدأت عملية الانتشار الجغرافي بسرعة نسبية على المستوى الجيولوجي، حيث تحركت القبائل جنوباً عبر ممرات خالية من الجليد تشكلت في غرب أمريكا الشمالية، لتصل في غضون بضعة آلاف من السنين إلى طرف أمريكا الجنوبية، في واحدة من أسرع عمليات الاستيطان البشري في التاريخ. هذا الانتشار السريع يدل على مرونة عالية

وقدرة تكيف مذهلة مع بيئات متنوعة تماماً، من الغابات الكثيفة في الأمازون، إلى السهول العشبية الواسعة في وسط أمريكا، والجبال الشاهقة في جبال الأنديز، والصحاري القاحلة في الغرب الأمريكي.

تنوعت أنماط المعيشة باختلاف البيئة التي استقرت فيها كل مجموعة، ففي المناطق الساحلية اعتمد السكان على صيد الأسماك وجمع المحار، بينما في السهول الداخلية تخصصوا في صيد البيسون والأيائل، وفي المناطق الجبلية بدأوا في تدجين بعض النباتات والحيوانات المحلية. هذا التنوع البيئي أدى إلى تنوع ثقافي هائل، حيث تطورت مئات اللغات المختلفة، والمعتقدات الدينية المتباينة، والأنماط الفنية المميزة لكل منطقة، مما جعل خريطة السكان الأصليين قبل الوصول الأوروبي فسيفساء معقدة من الثقافات المستقلة. لم يكن هناك كيان سياسي موحد يجمع كل الهنود الحمر، بل كانوا شعوباً وقبائل مستقلة، تتحالف أحياناً وتتصارع أحياناً أخرى، لكل منها سيادتها وهويتها الخاصة.

شهدت هذه الفترة أيضاً تطوراً في الأدوات والتقنيات، حيث انتقلوا من استخدام الأحجار البدائية إلى صناعة أدوات أكثر دقة وفعالية للصيد والقطع والحفر، وطوروا تقنيات لصناعة الملابس من الجلود والفراء لحماية أنفسهم من البرد القارس في الشمال أو الحر في الجنوب. كما بدأت تظهر بوادر الاستقرار شبه الدائم في بعض المناطق الغنية بالموارد، حيث أنشأوا مخيمات موسمية تحولت تدريجياً إلى قرى صغيرة، مما مهد الطريق للثورة الزراعية الكبرى التي ستغير مجرى تاريخهم. إن قدرة هؤلاء السكان على استغلال الموارد الطبيعية دون الإخلال بالتوازن البيئي لفترة طويلة تشهد على حكمة عميقة في التعامل مع الطبيعة، وفلسفة حياة ترى الإنسان جزءاً من الكون وليس مسيطراً عليه.

كانت القارتان الأمريكيتان قبل وصول الأوروبيين عالماً قائماً بذاته، يعج بالحياة والنشاط، وتسير فيه دورات الحياة والموت وفقاً لقوانين الطبيعة وتوازنات القبائل المحلية. لم يكن هذا العالم فارغاً أو برية بانتظار

المكتشفين، كما صورته الروايات الأوروبية لاحقاً، بل كان مأهولاً بملايين البشر الذين بنوا لأنفسهم حياة كاملة ذات معنى وقيمة. إن دراسة هذه الفترة من الانتشار والاستقرار تمنحنا فهماً أعمق لتنوع التراث الإنساني، وتؤكد أن العزلة الجغرافية لم تكن عائقاً أمام الإبداع البشري، بل كانت بيئة حاضنة لتطور نماذج حضارية فريدة من نوعها.

## الفصل الثالث

### التطور الأول والثاني وبداية التحضر

مرت مجتمعات السكان الأصليين بمراحل تطورية متعددة، انتقلت بها من مرحلة الصيد والجمع البدائية إلى مراحل أكثر تعقيداً من التنظيم الاجتماعي والاقتصادي. المرحلة الأولى من التطور تميزت بالاعتماد الكلي على ما توفره الطبيعة، حيث كان التنقل المستمر سمة أساسية للحياة، ولم يكن هناك فائض في الإنتاج يسمح بتخزين الغذاء أو ظهور طبقات

اجتماعية مميزة. لكن مع مرور الوقت واكتساب الخبرة في التعامل مع البيئة، بدأت تظهر بوادر التغيير الجذري الذي سيمهد لظهور الحضارات الكبرى. المرحلة الثانية من التطور شهدت بداية التدجين النباتي والحيواني، وهو الإنجاز الذي غير وجه التاريخ في الأمريكتين كما غير في باقي أنحاء العالم.

في مناطق مختلفة من القارة، وبشكل مستقل عن بعضها البعض، بدأ السكان في تجربة زراعة بعض النباتات البرية، مثل الذرة في المكسيك، والبطاطس في جبال الأنديز، والقرع والفاصوليا في مناطق أخرى. هذا الاكتشاف الثوري للزراعة سمح بزيادة إنتاج الغذاء بشكل كبير، مما أدى إلى ظهور فائض يمكن تخزينه لفترات الشح، وبالتالي سمح للنمو السكاني المتزايد بالاستقرار في مكان واحد دون الحاجة للتنقل الدائم بحثاً عن الطعام. الاستقرار أدى إلى نشوء القرى الدائمة، التي كبرت تدريجياً لتتحول إلى مدن صغيرة، وبدأت تظهر تخصصات في العمل، حيث لم يعد الجميع بحاجة للعمل في الزراعة، فظهر الحرفيون والبنائون والكهنة والمحاربون.

مع نمو المجتمعات الزراعية، بدأت تتشكل هياكل اجتماعية أكثر تعقيداً، حيث ظهرت طبقة حاكمة أو نخب دينية تدير شؤون المجتمع وتنظم أعمال الري وتوزيع الغذاء، مما وضع الأسس الأولى للدولة المنظمة. كما تطورت المعتقدات الدينية وأصبحت أكثر تعقيداً، وارتبطت بدورات الزراعة والفصول، وشيدت المعابد الأولى لتقديم القرابين وطلب البركة للمحاصيل. هذا التحول من البساطة إلى التعقيد لم يحدث بين ليلة وضحاها، بل كان عملية تراكمية استمرت لآلاف السنين، شهدت صعود وسقوط مجتمعات محلية كثيرة قبل أن تصل إلى ذروة الازدهار في حضارات المايا والأزتيك والإنكا.

إن هذا التطور الداخلي يثبت أن السكان الأصليين لم يحتاجوا إلى مؤثرات خارجية لبناء حضارتهم، بل كان لديهم من الإمكانيات العقلية والتنظيمية ما يؤهلهم للوصول إلى مستويات راقية من الرقي المدني. كانت المدن الأولى في الأمريكتين مراكز إشعاع ثقافي

وتجاري، تجذب السكان من المناطق المحيطة، وتشهد تبادلًا للمعارف والسلع والتقنيات. إن فهم هذه المراحل التطورية ضروري لتقدير حجم الإنجاز الحضاري الذي حققه الهنود الحمر بأنفسهم، قبل أن يقاطع مسار تطورهم الطبيعي الغزو الخارجي الذي قلب الموازين وأعاد عقارب الساعة إلى الوراء في كثير من الأحيان.

## الفصل الرابع

### العصور القديمة المبكرة واكتشاف الزراعة

تعتبر فترة العصور القديمة المبكرة في تاريخ الأمريكتين هي الحاضنة التي نبتت فيها بذور الثورة الزراعية، التي تعد أحد أعظم إنجازات الإنسان في تاريخه. في حين كانت حضارات الشرق الأوسط تكتشف الزراعة في نفس الفترة تقريباً، كان سكان الأمريكتين يبدعون في تدجين نباتات لم تكن معروفة في أي مكان آخر في العالم، مما أثرى التنوع الغذائي للبشرية جمعاء.

في منطقة وسط أمريكا، وتحديداً في ما يعرف اليوم بالمكسيك، بدأ السكان في تدجين نبات التيزنت البري ليصبح الذرة التي نعرفها اليوم، بعد قرون من الانتخاب الاصطناعي والتحسين الوراثي البدائي. الذرة أصبحت العمود الفقري للغذاء في معظم حضارات الأمريكتين، ودعمت النمو السكاني الهائل الذي شهدته المنطقة.

في المقابل، وفي المرتفعات الشاهقة لجبال الأنديز في أمريكا الجنوبية، كان سكان منطقة بيرو وبوليفيا الحاليين ينجحون في تدجين البطاطس، وهي نباتات قادرة على النمو في ظروف مناخية قاسية وارتفاعات شاهقة، مما وفر مصدراً غذائياً غنياً ومستقراً لملايين السكان. بالإضافة إلى ذلك، تم تدجين نباتات أخرى مهمة مثل الكينوا، والطماطم، والفلفل، والكاكاو، والكوكا، والتي أصبحت لاحقاً جزءاً أساسياً من النظام الغذائي العالمي بعد التبادل الكولومبي. لم يقتصر الابتكار على النباتات فقط، بل شمل الحيوانات أيضاً، حيث نجح سكان الأنديز في تدجين اللاما والألبكا للاستفادة من لحمها وصوفها وكحيوانات حمل،

بينما تم تدجين الديك الرومي في أمريكا الشمالية.

اكتشاف الزراعة لم يغير فقط نمط الغذاء، بل أحدث ثورة في البنية الاجتماعية والاقتصادية. فالزراعة تتطلب إدارة للموارد المائية، وبناء قنوات الري، وتنظيم العمل الجماعي، مما دفع نحو ظهور قيادات مركزية قادرة على التخطيط والتنفيذ. كما أن فائض الغذاء سمح بظهور التجارة، حيث بدأت القبائل تتبادل المنتجات الزراعية مقابل المواد الخام مثل حجر السج لصناعة الأدوات، أو الريش الملون للزينة، أو الملح. شبكات التجارة هذه ربطت بين مناطق بعيدة جداً، ونقلت معها الأفكار والتقنيات والمعتقدات الدينية، مما ساهم في توحيد ثقافي نسبي رغم التنوع اللغوي والعرقي.

إن نجاح السكان الأصليين في تطوير الزراعة بشكل مستقل تماماً عن العالم القديم يدحض أي ادعاءات بتخلفهم أو اعتمادهم على الغير، ويبرز عبقرية هؤلاء المزارعين الأوائل الذين استطاعوا تحويل نباتات برية

غير صالحة للأكل إلى محاصيل استراتيجية تغذي العالم اليوم. كانت الحقول المدرجة في جبال الأنديز، وأنظمة الري المعقدة في الصحاري الأمريكية، شواهد حية على هندسة زراعية متطورة سبقت كثيراً من التقنيات الحديثة. هذه الفترة الذهبية من الابتكار الزراعي شكلت الأساس المادي الذي قامت عليه الإمبراطوريات العظيمة اللاحقة، لولا أن القدر كان يعد لها مفترق طرق دموي مع وصول الغرباء.

## الفصل الخامس

### بداية التواصل والتعارف بين القبائل

مع استقرار المجتمعات الزراعية ونموها، بدأت شبكات التواصل والتعارف بين القبائل المختلفة تتوسع وتعمق، لتشكل نسيجاً اجتماعياً واقتصادياً معقداً يغطي مساحات شاسعة من القارتين. لم تكن القبائل معزولة تماماً عن بعضها البعض، بل كانت تربطها علاقات تجارية ودبلوماسية وثقافية متبادلة، تتراوح بين

التحالفات السلمية وحروب المنافسة على الموارد. طرق التجارة الرئيسية كانت شرايين الحياة التي تنقل ليس فقط السلع المادية، بل أيضاً الأخبار والابتكارات والتقنيات الجديدة، مما سمح بنشر المعرفة عبر مسافات طويلة بسرعة تفوق سرعة تنقل الأفراد.

في أمريكا الشمالية، كانت شبكات التجارة تربط بين قبائل السهول الكبرى التي تصيد البيسون، وقبائل الغابات الشرقية التي تجمع الأخشاب وتصنع القوارب، وقبائل الجنوب الغربي التي تنتج الفخار والمنسوجات. وكانت مراكز تجارية كبرى تنشأ في نقاط التقاء هذه الطرق، حيث تقام الأسواق الموسمية ويتبادل الناس السلع مثل حجر السج، والنحاس، والأصداف البحرية، والجلود المدبوغة. هذا التفاعل المستمر ساهم في تقارب الثقافات وتبادل المؤثرات الفنية والدينية، حيث نجد تشابهاً في الرموز والأساطير بين قبائل متباعدة جغرافياً، دلالة على عمق هذا التواصل.

في أمريكا الوسطى والجنوبية، كان التواصل أكثر كثافة

وتنظيماً، خاصة مع ظهور المراكز الحضرية الكبرى التي أصبحت عواصم إقليمية تجذب التجار والزوار من كل حذب وصيب. كانت مدن المايا والأزتيك والإنكا مراكز إشعاع حضاري، تصدر النمط المعماري والفني والديني إلى المناطق النائية، وتستورد منها المواد الخام والمنتجات الفاخرة. كما كانت هناك بعثات دبلوماسية تنتقل بين الممالك والإمارات، لتأكيد التحالفات أو ترتيب الزيجات السياسية أو حل النزاعات حدودية، مما يعكس مستوى رفيعاً من الدبلوماسية الدولية البدائية.

لكن هذا التواصل لم يكن دائماً سلمياً، فقد كانت الحروب والصراعات جزءاً من طبيعة العلاقات بين الكيانات السياسية المتنافسة على السيطرة على طرق التجارة أو الأراضي الخصبة. كانت الغزوات تهدف أحياناً إلى فرض الجزية أو السيطرة على موارد معينة، وأحياناً أخرى لأسباب دينية تتعلق بالحصول على أسرى للقرابين. ومع ذلك، حتى في حالات الحرب، كان هناك قواعد وأعراف تحكم القتال وتحدد حقوق الأسرى والمعاهدات، مما يدل على وجود نظام

أخلاقي وقانوني عرفي متطور ينظم العلاقات بين الشعوب. إن هذا المشهد من التفاعل الديناميكي يرسم صورة لعالم حيوي و مترابط، كان يسير في مسار تطوره الطبيعي قبل أن تدخل قوة خارجية معادلة وتقلب كل الموازين.

## الفصل السادس

### حضارة المايا عبقرية الفلك والرياضيات

تعد حضارة المايا واحدة من ألمع الجواهر في تاج الحضارات الإنسانية، وقد ازدهرت في منطقة أمريكا الوسطى التي تشمل حالياً جنوب المكسيك وغواتيمالا وبليز وأجزاء من هندوراس والسلفادور. تميزت المايا بإنجازات مذهلة في مجالات الفلك والرياضيات والكتابة والهندسة المعمارية، تجاوزت في دقتها وتعقيدها كثيراً من معاصريها في العالم القديم. طور المايا نظاماً كتابياً معقداً يعتمد على الصور والرموز الصوتية، وهو النظام الكتابي الوحيد في

الأمريكتين الذي تمكن العلماء من فك شفرته بالكامل تقريبًا، وكشف لنا عن تاريخهم السياسي والديني المفصل.

في مجال الفلك، بلغ المايا درجة من الدقة المذهلة في رصد حركات الكواكب والنجوم، حيث حسبوا طول السنة الشمسية بدقة متناهية تفوق التقويم اليولياني المستخدم في أوروبا في ذلك الوقت. بنوا مرصد فلكية ضخمة، مثل مرصد إل كاراكول في مدينة تشيتشن إيتزا، لرصد حركات كوكب الزهرة بدقة، وربطوها بالأحداث الدينية والحربية. كما ابتكروا مفهوم الصفر في الرياضيات بشكل مستقل عن العالم القديم، واستخدموا نظامًا رقميًا عشريًا متقدمًا سهل عليهم إجراء حسابات فلكية وهندسية معقدة.

عمائر المايا الحجرية الضخمة، من أهرامات مدرجة ومعابد وقصور، تشهد على براعة هندسية ومعمارية فائقة، حيث بنوا مدنًا كاملة بدون استخدام العجلة أو الحيوانات الجرارة أو الأدوات المعدنية، معتمدة فقط

على الأدوات الحجرية والقوة البشرية والتنظيم الدقيق.  
مدن مثل تيكال وبالينكو وكوبا كانت مراكز حضرية  
مكتظة بالسكان، تضم آلاف المباني السكنية والمعابد  
والساحات العامة، وتدار بأنظمة معقدة لإدارة المياه  
والصرف الصحي.

لم تكن حضارة المايا دولة موحدة، بل كانت عبارة عن  
شبكة من دول المدن المستقلة، التي تتنافس  
وتتعاون فيما بينها، وتخوض حروبًا طقوسية وسياسية.  
نظام الحكم كان ثيوقراطيًا، حيث كان الملك يعتبر  
وسيطًا بين الآلهة والبشر، وتتركز سلطته في إقامة  
الطقوس الدينية وإدارة شؤون الحرب والزراعة. ورغم  
الغموض الذي لا يزال يحيط بأسباب انهيار المراكز  
الكبرى لحضارة المايا الكلاسيكية في القرن التاسع  
الميلادي، إلا أن إرثهم العلمي والثقافي بقي حيًا في  
المدن الشمالية واستمر حتى لحظة الوصول  
الإسباني، مقدمًا للعالم نموذجًا فريدًا للإبداع  
البشري في عزلة تامة.

## الفصل السابع

### عصر الميسيسيبي ومدن التلال العظيمة

في قلب أمريكا الشمالية، وعلى طول وديان الأنهار الكبرى مثل نهر الميسيسيبي وأوهايو، ازدهرت ثقافة عظيمة عُرفت بثقافة الميسيسيبي، والتي تركت وراءها آثارًا مذهلة على شكل تلال ترابية ضخمة ومعقدات حضارية واسعة. بلغت هذه الثقافة ذروتها بين عامي 800 و1600 ميلادية، وشملت مساحة شاسعة تمتد من البحيرات الكبرى في الشمال إلى خليج المكسيك في الجنوب، ومن جبال الأبلاتش في الشرق إلى السهول الكبرى في الغرب. كانت مدن الميسيسيبي مراكز سياسية ودينية وتجارية كبرى، يسيطر عليها زعماء أقوياء يجمعون بين السلطة الدينية والديوية في أيديهم.

أشهر هذه المدن كانت مدينة كاهوكيا، الواقعة قرب سانت لويس الحالية، والتي كانت في أوج ازدهارها

أكبر من مدينة لندن في نفس الفترة التاريخية. ضمت كاهوكيا أكثر من مائة تل ترابي، أكبرها تل الراهب الذي يبلغ ارتفاعه 30 مترًا وقاعدته أوسع من قاعدة هرم خوفو الأكبر، وكان يستخدم كمنصة للمعابد ومقابر للنخبة الحاكمة. كانت المدينة محاطة بأسوار خشبية ضخمة للحماية، وتضم ساحات عامة واسعة لممارسة الألعاب الطقوسية مثل لعبة الكرة، وأسواقًا نشطة تتبادل فيها السلع القادمة من مناطق بعيدة مثل النحاس من منطقة البحيرات الكبرى، والأصداف من خليج المكسيك.

اعتمد سكان الميسيسيبي على الزراعة المكثفة، خاصة زراعة الذرة، التي وفرت فائضًا غذائيًا سمح بنمو سكاني كثيف وظهور طبقات اجتماعية متميزة. كان المجتمع هرميًا للغاية، حيث يتصدره زعيم إلهي يتمتع بسلطة مطلقة، يليه الكهنة والمحاربون، ثم عامة الشعب من المزارعين والحرفيين. كانت معتقداتهم الدينية معقدة وتركزت حول عبادة الشمس والقوى الطبيعية، ومارسوا طقوسًا تتضمن تقديم القرابين لضمان خصوبة الأرض وانتصار الجيوش.

بدأت حضارة الميسيسيبي في الانحدار قبل وصول الأوروبيين بوقت قصير، ربما بسبب الاستنزاف البيئي والتصحّر الناتج عن الزراعة المكثفة، أو بسبب الصراعات الداخلية والأوبئة. عندما وصل المستكشفون الأوروبيون إلى المنطقة في القرن السادس عشر، وجدوا العديد من هذه المدن مهجورة أو في طريقها للزوال، لكن أحفاد هذه الحضارة، مثل قبائل التشيروك والشوكتو والكريك، حافظوا على الكثير من تقاليدهم الثقافية والاجتماعية. إن تلال الميسيسيبي تبقى شواهد صامتة على قدرة السكان الأصليين في أمريكا الشمالية على بناء مجتمعات معقدة وضحمة، تتحدى الصورة النمطية عن بدوية سكان الشمال.

## الفصل الثامن

حضارة الأزتيك إمبراطورية الدم والذهب

في وسط المكسيك، وعلى بحيرة تيكسكوكو، نشأت واحدة من أكثر الإمبراطوريات إثارة للربح والإعجاب في تاريخ الأمريكتين، وهي إمبراطورية الأزتيك. بدأ الأزتيك كقبيلة بدوية رحالة من الشمال، قبل أن يستقروا في القرن الرابع عشر الميلادي ويؤسسوا عاصمتهم الأسطورية تينوتشتيتلان على جزيرة في وسط البحيرة، ووفقاً لنبوءة دينية رأوا فيها نسرًا يلتهم ثعبانًا فوق صبار. في غضون قرن واحد فقط، تحولت هذه المستوطنة المتواضعة إلى عاصمة إمبراطورية شاسعة تمتد من المحيط الهادئ إلى خليج المكسيك، وتسيطر على ملايين الرعايا من الشعوب الخاضعة.

كانت تينوتشتيتلان مدينة هندسية مذهلة، تتقاطع فيها القنوات المائية والجسور، وتضم أسواقًا ضخمة مثل سوق تلاتيلولكو الذي كان يزوره يوميًا عشرات الآلاف من التجار. بنى الأزتيك جزرًا اصطناعية زراعية تسمى تشينامباس لزيادة الرقعة الزراعية، وطوروا نظامًا ضريبيًا معقدًا يجبي الجزية من الشعوب المغلوبة على شكل ذهب وفضة وقماش وغذاء وحتى

بشر للقرابين. كان المجتمع الأزتيكي عسكريًا بامتياز، حيث كانت المكانة الاجتماعية ترتبط بالشجاعة في المعارك وعدد الأسرى الذين يتم أسرهم.

الجانب الأكثر إثارة للجدل في حضارة الأزتيك هو ممارساتهم الدينية التي تضمنت تقديم قرابين بشرية واسعة النطاق، حيث كانوا يعتقدون أن الآلهة تحتاج إلى تغذية بدماء البشر للحفاظ على حركة الكون ومنع نهاية العالم. كانت المعابد الكبرى، مثل معبد تيمبلو مايور، مساح لطقوس دموية يومية، مما ولد شعورًا بالكراهية والخوف لدى الشعوب الخاضعة للأزتيك، وهو عامل استغله الإسبان لاحقًا لتحريض هذه الشعوب ضد ساداتهم.

على الرغم من قوتها العسكرية الهائلة وتنظيمها الإداري الدقيق، كانت إمبراطورية الأزتيك تبني على أسس هشة من الخوف والإكراه، مما جعلها عرضة للانهار الداخلي بمجرد تعرضها لضربة خارجية قوية. كان الإمبراطور مونتيروزوما الثاني يحكم إمبراطورية

مترامية الأطراف لكنه كان محاطًا بشعوب تثار منه وتنتظر الفرصة للانقضاض عليه. عندما وصل هرنان كورتيز والغزاة الإسبان، وجدوا في هذه الانقسامات الداخلية المفتاح الذهبي لسقوط إمبراطورية كانت تبدو منيعة، لتنتهي قصة الأزتيك بدمار عاصمتهم وتحولها إلى أنقاض تحت العاصمة الإسبانية الجديدة مكسيكو سيتي.

## الفصل التاسع

### حضارة الإنكا سادة جبال الأنديز

في المرتفعات الشاهقة لجبال الأنديز في أمريكا الجنوبية، بنت حضارة الإنكا أكبر إمبراطورية في تاريخ الأمريكتين قبل العصر الكولومبي، ممتدة على طول الساحل الغربي للقارة لمسافة تزيد عن أربعة آلاف كيلومتر، لتشمل أجزاءً من بيرو والإكوادور وبوليفيا وتشيلي والأرجنتين الحالية. تميزت إمبراطورية الإنكا بتنظيمها الإداري المركزي الفائق الدقة، وشبكة طرقها

الهندسية المذهلة التي ربطت أركان الإمبراطورية  
الواسعة، مما سمح بنقل الجيوش والبضائع  
والمعلومات بسرعة قياسية في تلك التضاريس الوعرة.  
كانت عاصمتهم كوزكو تعتبر سرّة العالم، ومركزاً دينياً  
وسياسياً يشع منه نور الإله الشمس إنتي.

لم يعرف الإنكا الكتابة بالمعنى التقليدي، لكنهم طوروا  
نظاماً معقداً من الحبال المعقودة يسمى الكيبو،  
استخدموه لتسجيل البيانات الإحصائية والضريبية  
والتعداد السكاني بدقة متناهية. كان الاقتصاد الإنكي  
مخططاً مركزياً، حيث لا توجد تجارة حرة بالمعنى  
المعروف، بل تقوم الدولة بتوزيع الموارد حسب الحاجة  
بنظام يسمى الميتا، وهو شكل من أشكال العمل  
الجماعي لصالح الدولة مقابل الرعاية الاجتماعية. بنى  
الإنكا مدرجات زراعية رائعة على سفوح الجبال لمنع  
الانجراف وزيادة الإنتاج، وشيدوا حصوناً وقلاعاً حجرية  
ضخمة بدون ملاط، مثل ماتشو بيتشو، التي لا تزال  
تحير المهندسين حتى اليوم بدقة بنائها ومقاومتها  
للزلازل.

كان المجتمع الإنكي هرميًا جدًّا، يرأسه الإمبراطور الملقب بسابا إنكا، الذي يعتبر ابنًا للشمس ويتمتع بسلطة مطلقة. كانت الدولة توفر التعليم والرعاية الصحية والغذاء لجميع المواطنين، مقابل الولاء التام والعمل في مشاريع الدولة. لكن مثل الأزتيك، اعتمد الإنكا في توسعهم على إخضاع القبائل الأخرى بالقوة، ونقل مجموعات سكانية كبيرة لكسر ولاءاتها القبلية، مما خلق استياءً داخليًا عميقًا.

في لحظة مصيرية، وقبل وصول الإسبان بوقت قصير، غرقت إمبراطورية الإنكا في حرب أهلية دموية بين الأخوين أتاهاوالبا وواسكار على العرش، مما أضعف تماسك الدولة وجيشها. عندما وصل فرانسيسكو بيزارو ومعه حفنة من المغامرين الإسبان، وجدوا إمبراطورية ممزقة ومنهكة، واستغلوا الموقف بخبث لاخطاف الإمبراطور أتاهاوالبا وقتله، مما أدى إلى انهيار سريع ومروع لأعظم إمبراطوريات الجنوب، وسقوط حضارة كانت قد بلغت ذروة تنظيمها وقوتها.

## الفصل العاشر

### حضارات أمريكا الشمالية المتنوعة

بينما حظيت حضارات المايا والأزتيك والإنكا باهتمام واسع، كانت أمريكا الشمالية موطنًا لتنوع هائل من الثقافات والحضارات التي تكيفت بذكاء مع بيئاتها المتنوعة. في الجنوب الغربي الصحراوي، بنى شعب الأناسازي مدنًا صخرية مذهلة منحوتة في جوانب الجروف، مثل تلك الموجودة في منتزه ميسا فيردي الوطني، وطوروا أنظمة ري متقدمة للزراعة في بيئة قاسية. في السهول الكبرى، عاشت قبائل مثل السيو والشايان والكومانس حياة ترحال تعتمد على صيد البيسون، وطورت ثقافة الفروسية بعد إدخال الحصان من قبل الأوروبيين، لتصبح محاربة شرسة ودفاعًا عن أراضيها.

في الشمال الغربي الساحلي الغني بالأسمك

والأخشاب، ازدهرت قبائل مثل التلينك والهيدا، التي بنت منازل خشبية ضخمة ونحتت أعمدة الطوطم الشهيرة التي تعكس أنسابهم وأساطيرهم، وأقاموا احتفالات البوتلاتش المعقدة لإعادة توزيع الثروة. في الغابات الشمالية الشرقية، اتحدت قبائل الإيروكوا في كونفدرالية قوية ديمقراطية إلى حد ما، أثرت لاحقًا في أفكار الدستور الأمريكي، وعاشت في منازل طويلة مشتركة تعكس روح التعاون القبلي. كل هذه الحضارات طورت لغاتها وفنونها ومعتقداتها الخاصة، وشكلت نسيجًا بشريًا غنيًا غطى القارة من المحيط إلى المحيط.

لم تكن هذه المجتمعات بدائية بالمعنى السلبي، بل كانت معقدة ومتكيفة، تملك نظمًا سياسية وقانونية تحكم علاقاتها الداخلية والخارجية. كانت الحروب تحدث، لكن كانت هناك أيضًا فترات طويلة من السلام والتجارة والتبادل الثقافي. التنوع البيولوجي والجغرافي لأمريكا الشمالية أنتج تنوعًا ثقافيًا ماثلاً، حيث طورت كل مجموعة حلولًا مبتكرة للتحديات التي تفرضها بيئتها، من بناء القوارب الجلدية في القطب

الشمالي إلى صناعة الفخار المزجج في الصحاري.

عند وصول الأوروبيين، اصطدمت هذه الحضارات المتنوعة بموجة استعمارية لم تفهم تعقيداتها ولم تحترم استقلاليتها، وسعت إلى طمس هوياتها ومصادرة أراضيها. رغم ذلك، أظهرت هذه الشعوب مقاومة بطولية وقدرة مذهلة على الصمود، وحافظت على جوهر ثقافتها رغم محاولات الإبادة والاستيعاب، ولا تزال قبائل أمريكا الشمالية حتى اليوم تحيي تراث أسلافها وتناضل من أجل الاعتراف بحقوقها وهويتها.

## الفصل الحادي عشر

من أول من اكتشف الأمريكتين الحقيقة قبل كولومبوس

لطالما نسب الفضل في اكتشاف الأمريكتين إلى كريستوفر كولومبوس في عام 1492، لكن الحقائق

التاريخية والأثرية تؤكد أن الأوروبيين وصلوا إلى شواطئ العالم الجديد قبله بقرون عديدة. الدلائل القاطعة تشير إلى أن الفايكنج، وهم محاربون وبحارة جراًة من اسكندنافيا، وصلوا إلى أمريكا الشمالية حوالي عام 1000 ميلادية، أي قبل كولومبوس بنحو خمسة قرون. قاد المستكشف الفايكنجي ليف إريكسون رحلة استكشافية من جرينلاند ليصل إلى أرض أطلقوا عليها اسم فينلاند، والتي يعتقد أنها تقع في منطقة نيوفندلاند الكندية الحالية.

تم تأكيد هذا الوجود الفايكنجي اكتشافياً باكتشاف موقع لانس أو ميدوز في نيوفندلاند، حيث عثر علماء الآثار على بقايا مستوطنة فايكنجية تحتوي على ورش عمل ومساكن تعود لتلك الفترة. لكن الوجود الفايكنجي كان محدوداً ومؤقتاً، ولم يؤدي إلى استيطان دائم أو تواصل مستمر مع بقية أوروبا، ربما بسبب صعوبة المناخ وبعُد المسافة ومقاومة السكان الأصليين الذين أطلق عليهم الفايكنج اسم السكريلينج. انتهت مغامرات الفايكنج في أمريكا دون أن تترك أثراً دائماً في الوعي الأوروبي العام في ذلك

الوقت.

هناك أيضاً نظريات وأدلة متناقضة حول وصول مجموعات أخرى قبل كولومبوس، بما في ذلك نظريات حول وصول بحارة مسلمين من الأندلس أو شمال أفريقيا إلى الأمريكتين في القرن العاشر أو الحادي عشر، مستفيدين من معرفتهم الفلكية والملاحية المتقدمة وطرق التجارة عبر المحيط الأطلسي. بعض المؤرخين يشيرون إلى خرائط قديمة ونصوص تاريخية إسلامية قد توحى بمعرفة بوجود أراضٍ وراء المحيط، لكن هذه الأدلة لا تزال موضع جدل وتحتاج إلى مزيد من الإثباتات الأثرية القاطعة لتكون حقيقة تاريخية مسلمًا بها كالفايكنج.

بغض النظر عن الجدل حول المسلمين أو غيرهم، فإن الحقيقة الثابتة هي أن كولومبوس لم يكن أول من وطئت قدمه الأمريكتين من غير السكان الأصليين، لكن فرقته تكمن في أن رحلته فتحت الباب أمام اتصال دائم ومستمر بين العالمين القديم والجديد. رحلات

كولومبوس أدت إلى تدفق هائل للمستعمرين والتجار والمستكشفين الأوروبيين، مما غير مجرى التاريخ العالمي بشكل جذري، بينما ظلت رحلات الفايكنج مجرد هامش في سجلات التاريخ حتى إعادة اكتشافها حديثًا. إن تصحيح هذا المفهوم التاريخي مهم لفهم أن الاكتشاف لم يكن حدثًا لحظيًا، بل عملية تراكمية، وأن فضل السبق لا يلغي تأثير النتيجة النهائية التي جلبها كولومبوس من فتح أبواب الجحيم على حضارة كاملة.

## الفصل الثاني عشر

### الفايكنج والأمريكيتين مغامرة قصيرة الأمد

كانت مغامرة الفايكنج في الأمريكتين قصة شجاعة بحرية فائقة، لكنها انتهت بفشل في تأسيس جسر دائم بين أوروبا والعالم الجديد. اعتمد الفايكنج على سفنهم الخفيفة والسريعة التي مكنتهم من عبور المحيط الأطلسي الشمالي العاصف والوصول إلى

جرينلاندي ثم أمريكا الشمالية. أسسوا مستوطنات صغيرة في فينلاندي، حاولوا فيها الزراعة والتجارة مع السكان الأصليين، لكنهم واجهوا تحديات جملة لم يتمكنوا من تجاوزها. المناخ كان أكثر برودة مما توقعوا، والأراضي لم تكن مناسبة للزراعة المكثفة التي اعتادوها في أوروبا، مما جعل البقاء صعباً.

الأهم من ذلك، كانت العلاقة مع السكان الأصليين متوترة وعدائية في كثير من الأحيان. سجلات الفايكنج تحكي عن صراعات دموية مع السكان الذين قاوموا وجودهم بشدة، ولم يكن عدد الفايكنج كافياً لخوض حرب استنزاف طويلة في قارة غريبة ومعادية. نقص الدعم اللوجستي من أوروبا، وبعد المسافة الشاسعة التي تجعل الإمدادات والاتصال شبه مستحيل، جعل استمرار المستوطنات أمراً غير مجد اقتصادياً واستراتيجياً. تدريجياً، تخلى الفايكنج عن مستوطناتهم في أمريكا وراجعوا إلى جرينلاندي، ثم اختفت مستوطنات جرينلاندي نفسها لاحقاً بسبب التغيرات المناخية وعزلتها.

رغم فشلهم في الاستيطان، أثبت الفايكنج إمكانية العبور المحيطي، وكانت معرفتهم الجغرافية متقدمة جداً لعصرهم. لكن غياب التكنولوجيا المناسبة لطباعة ونشر المعلومات في ذلك الوقت، وعدم وجود دافع اقتصادي قوي كافٍ مثل الذهب أو التوابل في تلك المرحلة، جعل أخبار اكتشافهم تذوي ولا تصل إلى صناع القرار في الممالك الأوروبية الكبرى. بقيت قصص الفايكنج محصورة في الملاحم الإسكندنافية الشفهية والمخطوطات النادرة، حتى أعاد العلم الحديث اكتشافها.

هذه المغامرة القصيرة تظل شهادة على روح الاستكشاف البشرية، وتذكرنا بأن التاريخ مليء بالفرص الضائعة والمسارات البديلة. لو نجح الفايكنج في تأسيس موطئ قدم دائم، لربما كان تاريخ التفاعل بين أوروبا والأمريكيتين مختلفاً تماماً، وربما أقل دموية، لكن قدر الأمريكيتين كان أن ينتظر قرونًا أخرى حتى تأتي عاصفة الاستعمار الكولومبي التي لن تترك حجراً على حجر.

## الفصل الثالث عشر

### المسلمون واكتشاف أمريكا جدل التاريخ

تشغل قضية وصول المسلمين إلى أمريكا قبل كولومبوس حيزاً من الجدل التاريخي والبحث الأكاديمي، حيث تطرح نظريات تستند إلى قرائن تاريخية وجغرافية مثيرة للاهتمام. يشير بعض الباحثين إلى أن البحارة المسلمين في الأندلس وشمال أفريقيا، الذين كانوا رواداً في علوم الملاحة والفلك في العصور الوسطى، قد يكونون قد عبروا المحيط الأطلسي في رحلات استكشافية أو تجارية. تذكر بعض المصادر التاريخية الإسلامية، مثل كتابات المؤرخ الأندلسي أبو بكر بن عمر القوطية، أخباراً عن بحار أندلسي اسمه خشخاش بن سعيد بن أسود خرج من بالوس في القرن التاسع ووصل إلى أراضٍ وراء المحيط وعاد بغنائم، رغم أن هذه الروايات تخضع للنقاش حول صحتها وتفسيرها.

كما تشير خرائط قديمة، مثل خريطة بيري رئيس التي رسمت في القرن السادس عشر، إلى تفاصيل جغرافية دقيقة لسواحل أمريكا الجنوبية قد توحى بمعرفة مسبقة من مصادر عربية أو إسلامية، رغم أن الخريطة نفسها تعود لفترة ما بعد كولومبوس. بالإضافة إلى ذلك، يوجد تشابه لغوي وثقافي محتمل بين بعض كلمات السكان الأصليين والكلمات العربية، وكذلك تأثيرات معمارية وفنية يُزعم وجودها، لكن هذه الأدلة غالبًا ما تكون غير حاسمة وتحتاج إلى تدقيق علمي صارم لاستبعاد الصدفة أو التأثيرات اللاحقة عبر الاستعمار الإسباني الذي حمل بصمة إسلامية أندلسية.

العالم الإسلامي في تلك الفترة كان يمتلك شبكات تجارية واسعة ومعرفة جغرافية متقدمة، وقد يكون الدافع الاقتصادي للاستكشاف موجودًا، لكن عدم وجود أدلة أثرية قاطعة مثل مستوطنات أو عملات أو وثائق مكتوبة في الأمريكتين تعود لتلك الفترة يجعل

الأمر يبقى في دائرة النظرية والاحتمال وليس الحقيقة التاريخية المؤكدة كحالة الفايكنج. ومع ذلك، فإن فتح باب البحث في هذا الاتجاه يثري فهمنا لإمكانيات الملاحظة القديمة ويدفع لإعادة قراءة المصادر التاريخية بمنظور جديد.

سواء ثبتت صحة هذه النظريات أم لا، فإن الفضل في إحداث التغيير الجذري والمستدام في تاريخ العالم يبقى مرتبطاً برحلة كولومبوس وتداعياتها المباشرة، بينما تظل رحلات المسلمين المحتملة إشارات غامضة في دهاليز التاريخ تنتظر من يكشف ستارها بأدلة دامغة.

## الفصل الرابع عشر

العالم الإسلامي وطرق التجارة ودافع الاكتشاف

في القرن الخامس عشر، كان العالم الإسلامي

يسيطر على طرق التجارة الحيوية بين الشرق والغرب، خاصة طريق الحرير وطرق التوابل التي تمر عبر الشرق الأوسط وشمال أفريقيا. كانت السلع الثمينة مثل الحرير والتوابل والعطور والأحجار الكريمة تصل إلى أوروبا عبر وسطاء مسلمين وعثمانيين، مما جعل أسعارها باهظة جداً في الأسواق الأوروبية. بعد سقوط القسطنطينية في يد العثمانيين عام 1453، أغلقت الطرق التقليدية أو أصبحت أكثر صعوبة وخطورة بالنسبة للتجار الأوروبيين، مما خلق حاجة ملحة لإيجاد طرق بحرية بديلة للوصول إلى مصادر الثروة في الهند والصين مباشرة دون وسطاء.

هذا الوضع الاقتصادي الجيوسياسي كان المحرك الأساسي لعصر الاستكشاف الأوروبي، حيث سعت الممالك الأوروبية وخاصة البرتغال وإسبانيا إلى كسر الاحتكار الإسلامي والعثماني للتجارة العالمية. كان الدافع دينياً واقتصادياً في آن واحد، فالى جانب الرغبة في الذهب والتوابل، كان هناك حماس صليبي لنشر المسيحية ومحاربة الإسلام من الخلف. في هذا السياق، جاءت فكرة كريستوفر كولومبوس بالإبحار

غربًا للوصول إلى الشرق، مستندًا إلى حسابات فلكية وجغرافية خاطئة في تقدير حجم الأرض أقنعت ملكة إسبانيا إيزابيلا بتمويل مغامرته.

لم يكن كولومبوس يبحث عن قارة جديدة مجهولة، بل كان هدفه الوصول إلى جزر الهند الشرقية آسيا لفتح طريق تجاري مباشر. العالم الإسلامي لم يكن يعلم بوجود الأمريكتين بالضرورة، لكن سيطرته على الممرات البرية دفعت الأوروبيين للمخاطرة في عبور المحيط المجهول. المفارقة التاريخية هنا أن محاولة الالتفاف على العالم الإسلامي أدت بالصدفة إلى اكتشاف عالم جديد، كان سكانه يدفعون الثمن الأكبر لصراع القوى العالمية الذي لم يكن لهم دخل فيه.

إن فهم هذا الخلفية التجارية والسياسية ضروري لإدراك أن اكتشاف أمريكا لم يكن حدثًا بريئًا أو صدفة محضة، بل كان جزءًا من استراتيجية جيوسياسية كبرى للسيطرة على الموارد العالمية، وكانت الشعوب الأصلية ضحية لهذا الصراع على النفوذ والثروة بين

## الإمبراطوريات الناشئة.

### الفصل الخامس عشر

ظهور كريستوفر كولومبوس الرجل الذي غير العالم

كريستوفر كولومبوس، البحار الإيطالي المولد الذي خدم التاج الإسباني، هو الشخصية المحورية التي انقسم عندها تاريخ العالم إلى قبل وبعد. لم يكن كولومبوس مكتشفًا بالمعنى العلمي الهادئ، بل كان مغامرًا عنيدًا يمتلك رؤية راسخة بإمكانية الوصول إلى آسيا عبر المحيط الأطلسي. بعد سنوات من الرفض والتنقل بين البلاطات الأوروبية، نجح أخيرًا في إقناع الملكين الكاثوليكين فرناندو وإيزابيلا بتمويل رحلته، متسلحًا برسائل اعتماد ووعود بجلب الذهب والتوابل ونشر المسيحية.

في أغسطس 1492، أبحر كولومبوس بثلاث سفن

صغيرة هي النينيا والبنتا وسانتا ماريا، في رحلة محفوفة بالمخاطر عبر محيط كان يلفه الغموض والرعب في خيال الأوروبيين. بعد أسابيع من الإبحار في عرض البحر دون رؤية اليابسة، وكادت الروح المعنوية للطاقم أن تنهار وتحدث ثورة على القائد، لكن إصرار كولومبوس وتمسكه بحساباته أنقذ الموقف. في فجر يوم 12 أكتوبر 1492، صرخ أحد البحارة يابسة، لتهبط المجموعة على جزيرة في جزر البهاما أطلق عليها كولومبوس اسم سان سلفادور، معتقداً أنه وصل إلى جزر الهند الشرقية.

لقاء كولومبوس الأول مع السكان الأصليين كان ودياً في ظاهره، حيث وصفهم في يومياته بأنهم مسالمون وبسطاء ويمكن استعبادهم بسهولة، وهي النظرة الاستعلائية التي شكلت أساس العلاقة المستقبلية. لم يجد كولومبوس الذهب الذي حلم به بالكميات المتوقعة، ولا التوابل، لكنه عاد إلى إسبانيا محملاً ببعض العينات من النباتات والطيور الغريبة، وبعض السكان الأصليين كأسرى، مقدماً تقريراً مبالغاً فيه عن الثروات الهائلة التي تنتظر من يذهب لاستغلالها.

رحلة كولومبوس الأولى كانت الشرارة التي أشعلت فتيل الاستعمار الأوروبي للأمريكتين، وفتحت الباب أمام سيل جارف من المستكشفين والغزاة والمستوطنين الذين سيتدفقون على العالم الجديد. خطأ كولومبوس الجغرافي في تحديد موقعه كان له أبعاد الآثار التاريخية، حيث سمى السكان الأصليين خطأ بالهنود، واسم التصق بهم رغم اكتشاف الحقيقة لاحقاً. الرجل الذي ظن أنه وجد طريقاً مختصراً للتجارة، وجد في الواقع طريقاً للمأساة الكبرى لشعوب بأكملها.

## الفصل السادس عشر

### أول رحلات كولومبوس والصدمة الأولى

عند عودة كولومبوس إلى إسبانيا بعد رحلته الأولى، استقبل استقبال الأبطال، ونشرت أخبار اكتشافه في

جميع أنحاء أوروبا، مما أثار موجة من الحماس والطموح الاستعماري. لكن التفاصيل التي بدأ تتكشف عن الواقع في العالم الجديد كانت تختلف عن الأحلام الوردية التي رسمها كولومبوس. الجزيرة التي هبط عليها لم تكن غنية بالذهب كما أشاع، والسكان الأصليين لم يكونوا مستعدين للخضوع والاستعباد بسهولة كما توقع. ومع ذلك، كان الزخم السياسي والاقتصادي قد بدأ، ولم يكن هناك تراجع عن خطة استغلال الأراضي الجديدة.

في رحلته الثانية في عام 1493، عاد كولومبوس بأسطول ضخم يضم 17 سفينة وأكثر من ألف رجل، بينهم جنود ومبشرون ومستوطنون وزراعيون، حاملين معهم بذور النباتات الأوروبية والحيوانات الأليفة مثل الخيول والخنازير والأبقار. هذه المرة لم يكن الهدف الاستكشاف فقط، بل الاستيطان والسيطرة الفعلية. أسس كولومبوس مستوطنة لا إيزابيلا في جزيرة هيسبانيولا هايتي والدومينيكان حالياً، وبدأ في تطبيق نظام الإنكوميندا، وهو نظام إقطاعي مقنع يجبر السكان الأصليين على العمل في المناجم والحقول

لصالح المستعمرين الإسبان مقابل الحماية الوهمية والتحويل للمسيحية.

واجه كولومبوس ومستعموه مقاومة شرسة من السكان الأصليين الذين أدركوا نوايا الغزاة الحقيقية، فاندلعت أولى الصراعات الدموية. استخدم الإسبان تفوقهم العسكري المتمثل في الخيول والكلاب المدربة والسيوف والبنادق البدائية لقمع المقاومة بوحشية، وقطعوا أيدي من يعترضون منهم كمثال لغيرهم. بدأت الأمراض الأوروبية في الظهور أيضاً، حيث سرعان ما انتشرت الأوبئة بين السكان الذين لا يملكون مناعة ضدها، مما تسبب في وفاة أعداد هائلة قبل حتى أن تبدأ الحروب الكبيرة.

كولومبوس نفسه، الذي كان حاكماً للمستعمرة، فشل في إدارة الوضع الاقتصادي والأمني، وشكا المستوطنون من قلة الذهب وكثرة المشاكل، مما أدى إلى إرسال بعثات تحقيق من إسبانيا. الرحلة الأولى كانت اكتشافاً، أما الثانية فكانت بداية الغزو الفعلي

والاستبدال الديموغرافي، حيث بدأت ملامح النهاية تلوح في الأفق للسكان الأصليين في جزر الكاريبي، كنموذج مصغر لما سيحدث لاحقاً في القارتين.

## الفصل السابع عشر

### انتشار الأمراض الطاعون الخفي

كان السلاح الفتاك الذي قضى على حضارة الهنود الحمر ليس فقط السيف والبارود، بل عدواً غير مرئي جاء مع السفن الأوروبية ألا وهو الأمراض المعدية. السكان الأصليين للأمريكتين عاشوا في عزلة بيولوجية لآلاف السنين، ولم يتعرضوا للأمراض الوبائية التي كانت مستوطنة في أوروبا وآسيا وأفريقيا، مثل الجدري والحصبة والإنفلونزا والطاعون والتيفوس. نتيجة لذلك، لم تكن أجسادهم تمتلك أي مناعة طبيعية ضد هذه الجراثيم، وكان جهازهم المناعي عاجزاً تماماً عن مواجهتها.

عندما بدأ الاتصال بين العالمين، انتشرت هذه الأمراض بسرعة النار في الهشيم بين القبائل والمدن، متقدمة أحيانًا أمام الجيوش الأوروبية نفسها. مرض الجدري وحده كان كفيلاً بمحو قرى بأكملها في أيام معدودة، حيث كان يفتك بنسبة تصل إلى تسعين بالمئة من السكان في بعض المناطق. كانت الأعراض مروعة، والوفيات سريعة، مما أحدث صدمة نفسية واجتماعية عميقة، حيث اعتقد السكان أن آلهتهم قد غضبت عليهم أو أن الغزاة يملكون قوى سحرية سوداء.

لم تقتصر الكارثة على الوفيات المباشرة، بل أدت إلى انهيار البنية الاجتماعية والاقتصادية، حيث مات القادة والكهنة والمزارعون، وتوقفت الزراعة، وانتشرت المجاعات، وتفككت الأسر والقبائل. هذا الفراغ الديموغرافي الهائل سهل مهمة الغزاة الأوروبيين بشكل لا يصدق، حيث وجدوا إمبراطوريات مكتظة بالسكان تتحول إلى أشباح، ومدنًا عظيمة تصبح مقابر جماعية. في المكسيك وبيرو، ساعد تفشي الأوبئة في إضعاف مقاومة الأزتيك والإنكا بشكل حاسم، مما

مكن حفنة من الإسبان من هزيمة إمبراطوريات كانت تملك جيوشًا جارية في الظروف العادية.

تقدر بعض الدراسات أن الأمراض قضت على ما يصل إلى تسعين إلى خمسة وتسعين بالمائة من إجمالي سكان الأمريكتين الأصليين خلال القرن الأول من الاتصال، في واحدة من أكبر الكوارث الديموغرافية في تاريخ البشرية. كانت هذه إبادة بيولوجية غير مقصودة في بدايتها، لكنها استُغلت ببراعة من قبل المستعمرين كأداة فعالة لتصفية الوجود الأصلي وتمهيد الأرض للاستيطان الأوروبي.

## الفصل الثامن عشر

### ثالث ورابع رحلات كولومبوس والسقوط

استمرت رحلات كولومبوس الثالثة والرابعة في محاولة يائسة لتبرير وعوده بالثروة وإثبات أنه وصل بالفعل إلى

آسيا، لكنه واجه واقعاً مريباً من التمردات والمشاكل الإدارية والكوارث الطبيعية. في رحلته الثالثة، وصل إلى ساحل أمريكا الجنوبية فنزويلا حالياً، وأدرك أنه أمام قارة ضخمة وليس جزراً آسيوية، لكنه حاول كتمان هذه الحقيقة للحفاظ على امتيازاته. في هذه الأثناء، كانت مستعمرة هيسبانيولا تغرق في الفوضى، حيث اندلع تمرد للمستوطنين الإسبان الساخطين، وقام السكان الأصليون بثورات يائسة تم قمعها بدموية مفرطة.

كولومبوس نفسه وقع في حالة من العار، حيث اتهم بسوء الإدارة والقسوة المفرطة، وأعيد إلى إسبانيا مقيداً بالسلاسل في نهاية المطاف، ليفقد ألقابه وسلطاته. رحلاته اللاحقة كانت أقل شأنًا، حيث استكشف سواحل أمريكا الوسطى في رحلته الرابعة، وعانى من تحطم سفنه والضياع لشهور، قبل أن يعود محطماً ومريضاً ليموت في إسبانيا وهو لا يزال يعتقد أنه فتح طريقاً إلى الشرق، دون أن يدرك الحجم الحقيقي لاكتشافه أو الكارثة التي أطلقها.

بينما كان كولومبوس يكافح من أجل سمعته، كانت آلة الاستعمار الإسباني تعمل بكامل طاقتها. تدفق المغامرون والغزاة مثل الببوا وكورتيز وبيزارو، مدفوعين بأخبار الذهب والفضة، وبدعم رسمي من التاج الإسباني الذي رأى في الأمريكتين مصدرًا لا ينضب للثروة تعوضه عن خسائره في أوروبا. سقطت إمبراطورية الأزتيك بيد كورتيز في عام 1521، وسقطت إمبراطورية الإنكا بيد بيزارو في عام 1533، في حملات عسكرية خاطفة استغلت الأمراض والانقسامات الداخلية ببراعة.

نهاية كولومبوس الشخصية كانت رمزية لسقوط الوهم الذي بدأ به العصر، حيث تحول الحلم بالاكشاف السلمي والتجارة إلى كابوس من الدم والاستغلال. الإرث الذي تركه كولومبوس لم يكن فقط خريطة جديدة للعالم، بل نظامًا استعماريًا وحشيًا وضع الأساس لقرون من المعاناة للشعوب الأصلية، وغير التركيبة السكانية والثقافية للقارتين إلى الأبد.

## الفصل التاسع عشر

### اكتشاف أوروبا للعالم الجديد وسباق الذهب

بعد تأكيد وجود قارات جديدة وغنية بالموارد، تحولت أوروبا من حالة الدهشة إلى سباق محموم للاستحواذ على أكبر قدر ممكن من الأراضي والثروات. إسبانيا كانت السبّاقة والأكثر شرهة، حيث بسطت سيطرتها على معظم أمريكا الوسطى والجنوبية، وأغرقت خزائنها بكميات هائلة من الذهب والفضة المستخرجة من مناجم بوتوسي في بوليفيا ومناجم المكسيك. تبعها البرتغاليون الذين استولوا على البرازيل، ثم جاء الفرنسيون والإنجليز والهولنديون لينافسوا على أمريكا الشمالية، كل يسعى لنصيبه من الكعكة.

كان الدافع الاقتصادي هو المحرك الرئيسي، حيث رأت الممالك الأوروبية في الأمريكتين حلاً لأزماتها المالية ومصدرًا لتمويل حروبها في أوروبا. نظام المركنتيلية

السائد آنذاك كان يرى أن ثروة العالم محدودة، ويجب على الدولة أن تكسب أكبر قدر من المعادن الثمينة لتحقيق القوة. هذا الجشع الاقتصادي لم يترك مجالاً لأي اعتبارات أخلاقية أو إنسانية تجاه السكان الأصليين، الذين تم النظر إليهم مجرد عوائق يجب إزالتها أو موارد بشرية يجب استغلالها حتى الموت.

تأسست مدن جديدة على أنقاض المدن الأصلية، مثل مكسيكو سيتي وليما، وأصبحت مراكز لإدارة الإمبراطوريات الاستعمارية وتصدير الثروات إلى أوروبا. تم جلب ملايين العبيد من أفريقيا لاحقاً للعمل في المزارع والمناجم بعد نفاذ القوى العاملة الأصلية، في مثلث تجاري وحشي ربط بين القارات الثلاث. اكتشف العالم الجديد غير الاقتصاد العالمي، وأدى إلى تضخم هائل في أوروبا بسبب تدفق المعادن، ومول النهضة الأوروبية والثورة الصناعية لاحقاً بدماء وعرق السكان الأصليين.

كان هذا السباق على الذهب بمثابة حكم بالإعدام

الجماعي على الحضارات الأصلية، حيث لم يكن هناك مكان لوجود مستقل في ظل الجشع الأوروبي الذي لا يشبع. الأراضي التي كانت مقدسة للأسلاف أصبحت مجرد قطع عقارية، والموارد التي كانت مشتركة أصبحت ملكًا خاصًا للتاج، والهوية الثقافية أصبحت جريمة يجب محوها.

## الفصل العشرون

### ماذا تريد أوروبا من الأمريكتين

لم يكن هدف أوروبا من التوجه إلى الأمريكتين مجرد الاستكشاف العلمي أو الفضول الجغرافي، بل كانت أهدافًا واضحة ومحددة تتمثل في الأرض والثروة والسيادة الدينية. الأرض كانت العنصر الأهم، حيث كانت أوروبا تعاني من ضغط سكاني ونقص في الأراضي الزراعية، ورأت في المساحات الشاسعة للأمريكتين فرصة ذهبية للاستيطان وتوسيع رقعة النفوذ. الثروة كانت الشغل الشاغل، سواء كانت معادن

ثمينة مثل الذهب والفضة، أو موارد زراعية مثل السكر والقطن والتبغ التي يمكن زراعتها في المناخات الدافئة وتصديرها بأسعار خيالية.

الهدف الثالث كان دينيًّا وإيديولوجيًّا، حيث رأت الكنيسة الكاثوليكية والبروتستانتية لاحقًا في السكان الأصليين أرواحًا ضالة يجب إنقاذها من الجحيم عبر التبشير بالمسيحية، حتى لو كان ذلك بالسيف والنار. هذا المزيج من الدوافع الاقتصادية والدينية خلق أيديولوجية استعمارية تبرر الاستيلاء والإبادة باسم الله والتقدم الحضاري. الأوروبيون اعتبروا أنفسهم حاملين لرسالة تمدن الشعوب المتخلفة، متناسين أو متجاهلين الحضارات العريقة التي وجدوها أمامهم.

الرؤية الأوروبية كانت قائمة على التفوق العرقي والثقافي، حيث صنّفوا السكان الأصليين في أدنى درجات السلم البشري، وبرروا معاملتهم كحيوانات أو آلات عمل. القوانين التي صدرت لاحقًا، مثل قوانين بورغوس، حاولت تنظيم معاملة الهنود لكنها في

الجوهر أكدت على تبعية هؤلاء واستغلالهم. لم تكن هناك نية حقيقية للتعايش السلمي أو الشراكة، بل كان المشروع الاستعماري يقوم على الإحلال الكامل محل السكان الأصليين، سواء ديموغرافيًا أو ثقافيًا.

هذا الفهم الواضح للأهداف الأوروبية يفسر الوحشية المنهجية التي اتبعوها، فلم يكن العنف مجرد ردود فعل عفوية، بل كان أداة مخططة لتحقيق أهداف استراتيجية. الأمريكتين كانت مشروعًا أوروبيًا لإعادة تشكيل العالم، وكان ثمن هذا المشروع هو وجود شعوب بأكملها.

## الفصل الحادي والعشرون

### بداية نشر الأمراض ونهاية حضارة الأزتيك

كان تفشي وباء الجدري في المكسيك عام 1520 هو الضربة القاضية التي مهدت لسقوط إمبراطورية الأزتيك،

حيث اجتاحت المرض العاصمة تينوتشتيتلان في ذروة  
الحصار الإسباني. الوباء لم يفرق بين محارب ومدني،  
وبين نبيل وعامي، ومات الإمبراطور كويتلاواك نفسه  
متأثراً بالمرض بعد أسابيع قليلة من توليه العرش، مما  
أدخل الإمبراطورية في فراغ قيادي خطير. الصور  
المرعبة التي رواها الناجون عن أجساد مغطاة بالثور  
وروائح الموت التي تفوح من كل زاوية، تعكس حجم  
الكارثة الإنسانية التي حلت بالمدينة التي كانت يوما  
عاصمة عالم مزدهر.

استغل هرنان كورتيز هذا الوضع الكارثي ببراعة، حيث  
حاصر المدينة وقطع عنها الإمدادات المائية والغذائية،  
بينما كان الموت يحصد المدافعين عنها واحداً تلو  
الأخر. المقاومة التي أبدتها الأزتيك كانت بطولية، حيث  
قاتلوا حتى اللحظة الأخيرة دفاعاً عن مدينتهم  
وآلهتهم، لكن التفوق التكنولوجي للإسبان مدعوماً  
بالطاعون الخفي جعل المعركة غير متكافئة أبداً. في  
أغسطس 1521، سقطت تينوتشتيتلان في يد الغزاة،  
وتحولت إلى أنقاض ودُميت دماء سكانها في شوارعها  
وقنواتها.

دمر الإسبان المعابد والقصور، وحولوا مواد البناء لبناء الكنائس والمباني الاستعمارية فوق الأنقاض، في محاولة لمحو الذاكرة الحضارية للأزتيك. تم تدمير المخطوطات والكتب المقدسة، وقتل الكهنة والعلماء، في حملة ممنهجة لطمس الهوية الثقافية والدينية. ما تبقى من شعب الأزتيك تم دمجهم قسراً في النظام الاستعماري الجديد، كطبقة دنيا من الخدم والعمال، بعد أن كانوا سادة إمبراطورية عظيمة.

نهاية الأزتيك لم تكن مجرد سقوط دولة، بل كانت نهاية عالم كامل من المعتقدات والقيم والإنجازات، وسقوط نموذج حضاري فريد لم يُعطَ الفرصة للاستمرار والتطور بشكل طبيعي. كانت مأساة الأزتيك هي الإنذار الأول للعالم الجديد بأن العصر الجديد سيكون عصر دم وحديد وأمراض.

## الفصل الثاني والعشرون

## نهاية حضارة الإنكا والخدعة الإسبانية

في جبال الأنديز، تكررت المأساة ولكن بسيناريو مختلف قليلاً، حيث اعتمد فرانسيسكو بيزارو على الخدعة والجبن أكثر من المواجهة المباشرة. استغل بيزارو الحرب الأهلية بين الأخوين أتاواليبا وواسكار، وقدم نفسه كحليف محايد قبل أن ينقلب فجأة ويختطف الإمبراطور أتاواليبا في فخ نصب له في مدينة كاخاماركا. في حادثة مروعة، ذبح الإسبان حراس الإمبراطور الآلاف في ساحة المدينة دون أن يخسروا رجلاً واحداً تقريباً، مستخدمين عنصر المفاجأة والخيول التي رآها الإنكا لأول مرة كوحوش مرعبة.

عرض أتاواليبا ملء غرفة من الذهب وفضتين من الفدية مقابل إطلاق سراحه، ونفذ الإنكا الوفاء بوعدهم وجمعوا كنوزاً هائلة من كل أرجاء الإمبراطورية، لكن بيزارو نقض عهده وخنق الإمبراطور بعد استلام الذهب،

في دليل صارخ على انعدام الكلمة والشرف لدى الغزاة. مقتل الإمبراطور كان الضربة القاضية لروح الإنكا، حيث فقدوا قائدهم الإلهي ودخلوا في حالة من الشلل واليأس، مما سهل على الإسبان التقدم نحو العاصمة كوزكو واحتلالها.

رغم مقاومة شرسة قادها مانكو إنكا وغيره من القادة لاحقاً، واستمرت لعقود من حرب العصابات في الجبال الوعرة، إلا أن التفوق العسكري الإسباني مدعوماً بالأمراض والخيانة من بعض القبائل المحلية حسم المعركة في النهاية. تم تفكيك نظام الإنكا الإداري والاقتصادي، وفرضت السخرة على السكان في مناجم الفضة المميّنة، حيث مات الآلاف في ظروف عمل وحشية.

حضارة الإنكا، التي بلغت ذروة التنظيم والهندسة، سقطت ليس بسبب تخلفها، بل بسبب غدر الخصم وتفوقه في أدوات القتل، وغياب المناعة البيولوجية. بقيت روح الإنكا حية في التراث الشعبي وفي مقاومة

المستضعفين، لكن الدولة العظيمة زالت إلى غير رجعة، وأصبحت جبال الأنديز شاهداً على قبر إمبراطورية قتلتها الطمع والخدعة.

## الفصل الثالث والعشرون

### الاستيطان والاستعباد نظام العبودية المقنع

مع ترسيخ الوجود الأوروبي، تم إنشاء أنظمة قانونية واقتصادية هدفت إلى استغلال السكان الأصليين بأقصى درجة ممكنة. نظام الإنكوميندا الإسباني كان الشكل الأبرز لهذا الاستعباد، حيث منح التاج الإسباني للمستوطنين الحق في استغلال عمل مجموعة من الهنود في أراضٍ محددة، مقابل حمايتهم وتعليمهم المسيحية. في الواقع، كان هذا النظام عبودية صريحة، حيث عومل الهنود كحيوانات عمل، أُجبروا على العمل في المناجم الخطرة والحقول الشاقة لساعات طويلة دون أجر حقيقي، وتحت وطأة العقاب الجسدي الشديد.

قوانين الاستعمار لم تحم الهنود فعلياً، بل نظمت استغلالهم لضمان استمرار تدفق الثروة إلى إسبانيا. التقارير التي وصلتنا من رجال الدين مثل الراهب بارتولومي دي لاس كاساس تروي فظائع لا توصف من تعذيب وقتل جماعي وانتهاك للنساء، مما أدى إلى انخفاض كارثي في أعداد السكان. لم يكن العمل الشاق هو السبب الوحيد للموت، بل سوء التغذية والأمراض الناتجة عن ظروف المعيشة المزرية في المستوطنات والمناجم.

في المستعمرات الإنجليزية والفرنسية لاحقاً، اختلفت الأساليب قليلاً لكن الهدف بقي نفسه وهو الاستيلاء على الأرض. البريطانيون فضلوا دفع الهنود إلى الخلف وإنشاء مستوطنات زراعية خالصة، مما أدى إلى نزاعات دموية مستمرة على الحدود. تم توقيع معاهدات كثيرة مع القبائل، لكن الأوروبيين لم يحترموا منها سوى ما يخدم مصالحهم، وكانوا ينقضونها بمجرد الحاجة إلى المزيد من الأرض.

الاستعباد لم يكن جسديًا فقط، بل كان نفسيًا وثقافيًا، حيث سعى المستعمرون إلى كسر إرادة الهنود وتجريدهم من كرامتهم وهويتهم. تم تفكيك البنى الاجتماعية التقليدية، ومنعت الطقوس الدينية الأصلية، وفرضت اللغة والدين الأوروبيين بالقوة. هذا النظام من القهر المنهجي خلق جروحًا عميقة في النفس الجمعية للسكان الأصليين، لا تزال آثارها ملموسة حتى اليوم.

## الفصل الرابع والعشرون

### حرب الملك فيليب والصراع في نيو إنجلاند

في أمريكا الشمالية، لم يكن الاستقبال الأوروبي سلميًا كما قد توحي بعض الروايات الرومانسية، بل كان سلسلة من الصراعات الدموية على الأرض والسيادة. حرب الملك فيليب في عام 1675-1676

كانت واحدة من أعنف هذه الصراعات في نيو إنجلاند، حيث قاد ميتاكوميت، المعروف باسم الملك فيليب، زعيم قبيلة وامبانواغ، تحالفًا من القبائل الأصلية في تمرد شامل ضد المستعمرين الإنجليزيين. كان الدافع هو التوسع المستمر للمستوطنين على أراضي الهنود، وفرض القوانين الإنجليزية عليهم، ومحاولة تحويلهم قسرًا للمسيحية.

الحرب كانت دموية للغاية، ودمرت عشرات القرى الإنجليزية والهندية على حد سواء، وأودت بحياة آلاف من الجانبين. استخدم الطرفان تكتيكات وحشية، بما في ذلك حرق المنازل وقتل النساء والأطفال. في النهاية، تفوق الإنجليز بفضل تفوقهم العددي والإمدادات، وقتل الملك فيليب وقطعت رأسه وعرضت في بليموث كعبرة، وتم بيع العديد من أسرى الهنود كعبيد في جزر الكاريبي.

نتائج الحرب كانت كارثية على الهنود في نيو إنجلاند، حيث تم القضاء على مقاومتهم المنظمة، وصادرت

أراضيهم المتبقية، وتقلصت أعدادهم بشكل كبير. هذه الحرب كانت نقطة تحول، حيث أدرك المستعمرون أن الحل النهائي للمشكلة الهندية هو الإزالة الكاملة وليس التعايش. بدأت بعدها سياسات أكثر عدوانية لدفع القبائل إلى الغرب، وتم ترسيخ فكرة أن الهندي هو عدو يجب القضاء عليه أو إبعاده.

حرب الملك فيليب كانت مقدمة لسلسلة طويلة من الحروب والإبادات التي شهدتها القرنان التاليان، حيث كلما تقدمت الحدود الأمريكية غربًا، تبعها دم وصراعات لا تنتهي مع السكان الأصليين الذين دافعوا عن أراضيهم بكل ما أوتوا من قوة.

## الفصل الخامس والعشرون

تسلسل مرعب للأحداث موجة الإبادة

لم تكن نهاية حضارة الهنود الحمر حدثًا واحدًا، بل

كانت عملية متسلسلة ومرعبة من الأحداث التي تضافرت لتؤدي إلى النتيجة النهائية. بدأت بالأمراض التي فتكت بالنصف الأكبر من السكان، تلتها الحروب المباشرة التي قضت على المحاربين والنخبة، ثم جاء الاستعباد والعمل الشاق لينهي من تبقى من القوى المنتجة. بعد ذلك، بدأت سياسات التهجير القسري لنزع الملكية، ثم مدارس الاستيعاب القسري لقتل الهوية الثقافية، وأخيراً الفقر والتهميش في المحميات.

كل مرحلة من هذه المراحل كانت أسوأ من سابقتها، حيث لم يُترك للهنود أي مخرج للنجاة. في بعض المناطق، تم دفعهم إلى مجاعات مفتعلة من خلال قتل البيسون الذي يعتمدون عليه في غذائهم وكسائهم. في مناطق أخرى، تم تسميم مصادر مياههم أو توزيع بطانيات ملوثة بالجذري عمداً كسلاح بيولوجي. القوانين التي سنّت جردتهم من حقوقهم المدنية والإنسانية، وجعلت حياتهم رخيصة بلا قيمة في نظر القانون الأبيض.

التسلسل الزمني للإبادة يمتد لقرون، من القرن السادس عشر حتى أواخر القرن التاسع عشر، وشمل قارتين بأكملهما. لم تكن هناك رحمة ولا هوادة، وكان الشعار الضمني هو الهندي الجيد هو الهندي الميت. حتى عندما انتهت الحروب الكبرى، استمرت المعاناة من خلال الفقر والأمراض الاجتماعية التي تفتت في المحميات المعزولة.

هذا التسلسل المرعب يمثل واحدة من أبشع الفصول في تاريخ البشرية، حيث تأمرت القوى البيولوجية والعسكرية والاقتصادية والثقافية لإفناء شعوب بأكملها. إنه درس قاسٍ في كيف يمكن للجشع والعنصرية أن يحولا الإنسان إلى وحش كاسر لا يرحم.

## الفصل السادس والعشرون

استمرار الغزو الأوروبي والتوسع غرباً

لم يتوقف الغزو الأوروبي عند السواحل الشرقية أو المراكز الحضرية في المكسيك وبيرو، بل استمر كموجة جارفة نحو الغرب عبر قارة أمريكا الشمالية. مع نمو المستعمرات الإنجليزية والفرنسية والإسبانية، زاد الضغط على الأراضي الهندية، وبدأت سياسة الإزالة المنهجية. الفرنسيون في كندا والغرب الأوسط تحالفوا مع بعض القبائل ضد البريطانيين والهنود المنافسين، في حروب استنزاف طويلة أضعفت الجميع.

بعد حرب الاستقلال الأمريكية وتأسيس الولايات المتحدة، تسارعت وتيرة التوسع غربًا تحت شعار القدر الواضح، الذي رأى أن من حق الأمريكيين البيض التمدد من المحيط إلى المحيط. هذا التوسع لم يكن سلميًا، بل كان طريقًا معبدًا بالجنث الهندية. تم توقيع مئات المعاهدات التي انتهكت كلها، وتم دفع القبائل من أراضيهم الأسلاف إلى مناطق أصغر فأصغر، ثم إلى المحميات في الغرب القاحل.

اكتشاف الذهب في كاليفورنيا وفي جبال الروكي أدى إلى اندفاعات محمومة للمستوطنين، اقتحمت أراضي الهنود دون احترام لأي حقوق، وأتت على ما تبقى من موارد الطبيعة. بناء السكك الحديدية عبر القارة كان الضربة القاضية، حيث قسم أراضي الصيد ومنع هجرة الحيوانات، وجلب معه جيوشًا لحماية العمال والمستوطنين.

استمرار الغزو كان مدعومًا بتكنولوجيا متطورة من بنادق متكررة الطلقة ومدافع، مقابل سهام ورماح تقليدية. لم تكن المعارك متكافئة أبدًا، وكانت النتيجة دائمًا مذابح جماعية مثل مذبحه سان كريك ومذبحه الركبة الجريحة، حيث قُتل الرجال والنساء والأطفال دون تمييز.

## الفصل السابع والعشرون

الحرب الفرنسية الهندية وصراع الإمبراطوريات

كانت الحرب الفرنسية الهندية 1754-1763 فصلًا دمويًا آخر في تاريخ الهنود، حيث وجدوا أنفسهم محشورين بين مطرقة وسندان في صراع إمبراطوري بين بريطانيا وفرنسا على السيطرة على أمريكا الشمالية. تحالفت العديد من القبائل مع الفرنسيين الذين كانوا أقل عددًا وأكثر اهتمامًا بالتجارة من الاستيطان الزراعي، بينما دعمت قبائل أخرى البريطانيين أو حاولت البقاء على الحياد. كانت المعارك شرسة ودارت في الغابات والحدود، واستخدم فيها الطرفان تكتيكات حرب العصابات التي تعلموها من الهنود.

في النهاية، انتصرت بريطانيا وطردت الفرنسيين من القارة، لكن النصر كان وخيمًا على الهنود. فمع خروج الفرنسيين، فقد الهنود حليفًا كان يوازن القوة البريطانية، وأصبحوا أمام قوة عظمى لا تعرف الرحمة ولا تقبل بالمنافسة على الأرض. بريطانيا، التي تراكمت ديونها بسبب الحرب، قررت تحميل تكلفة الدفاع عن الحدود للمستعمرين، وفرضت قيودًا على

التوسع غربًا مؤقتًا، لكن الضغط الشعبي كان أقوى.

بعد الحرب، اندلع تمرد بونتياك، حيث وحد زعيم أوتاوا عدة قبائل في هجوم منسق على الحصون البريطانية، في محاولة يائسة لوقف الزحف الأبيض. تم قمع التمرد بوحشية، وتم استخدام الأسلحة البيولوجية بطانينات الجدري ضد المحاصرين، في سابقة تاريخية مروعة. نتائج الحرب الفرنسية الهندية مهدت الطريق مباشرة لحرب الاستقلال الأمريكية، وللسياسة الأمريكية اللاحقة التي رأت في الهنود عائقًا يجب إزالته لتحقيق الوحدة والتوسع.

الهنود دفعوا ثمن صراع الإمبراطوريات الأوروبية بأراضيهم وحياتهم، ولم يجنوا من النصر أو الهزيمة سوى الخسارة الأكيدة.

الفصل الثامن والعشرون

## بريطانيا والهنود الحمر وسياسة الإلغاء

بعد سيطرة بريطانيا على أمريكا الشمالية، تبنت سياسات أكثر صرامة تجاه الهنود، رغم محاولاتها الأولية لتنظيم العلاقة عبر خط الإعلان لعام 1763 الذي منع المستوطنين من عبور الجبال والاستيطان في الأراضي الهندية. هذا الخط كان يهدف إلى تهدئة الهنود وتجنب حروب مكلفة، لكنه أثار غضب المستوطنين الأمريكيين الذين شعروا بأن حقوقهم في التوسع مُنعت، وكان أحد أسباب التمرد على بريطانيا لاحقاً.

عندما اندلعت حرب الاستقلال الأمريكية، انقسمت القبائل بين دعم البريطانيين الذين وعدوهم بحماية أراضيهم من المستوطنين، ودعم الأمريكيين أو البقاء على الحياد. معظم القبائل دعمت البريطانيين إدراكاً منهم أن الاستقلال الأمريكي يعني خطراً أكبر على وجودهم. لكن هزيمة بريطانيا في الحرب كانت كارثة على الهنود، حيث تخلت عنهم بريطانيا في معاهدة

باريس 1783، وسلمت أراضيهم الغربية للولايات المتحدة الناشئة دون مشورتهم أو موافقتهم.

السياسة البريطانية اللاحقة في كندا اختلفت قليلاً، حيث اتبعت نهجاً أكثر تدريجياً في الاستيعاب وإنشاء المحميات، لكن النتيجة النهائية كانت نفس فقدان السيادة والأرض. في الولايات المتحدة، أصبح الهنود أعداء داخليين يجب التعامل معهم بقوة الجيش والقانون. بريطانيا، التي بدأت علاقة معقدة مع الهنود، انتهت بتهميشهم وتركهم لمصيرهم المحتوم أمام جشع الجمهورية الأمريكية.

## الفصل التاسع والعشرون

حرب الاستقلال الأمريكية والهنود ضحايا مرتين

كانت حرب الاستقلال الأمريكية 1775-1783 نقطة تحول كارثية للهنود الحمر، حيث وجدوا أنفسهم في

موقف خاسر مهما كانت نتيجة الحرب. بالنسبة للهنود، لم تكن الحرب صراعًا من أجل الحرية والديمقراطية كما صورتها الرواية الأمريكية، بل كانت صراعًا بين قوتين أوروبيتين على أرضهم، وكلاهما كان يهدد وجودهم. دعم معظم الهنود البريطانيين كخيار أقل شراءً، آمالين في أن توقف بريطانيا زحف المستوطنين، لكن هذا الرهان خسر.

بعد انتصار الأمريكيين واستقلالهم، تغيرت المعادلة تمامًا. الولايات المتحدة الجديدة، المتعطشة للأرض والنمو، رأت في الهنود عائقًا أمام توسعها، ولم تعد مقيدة بقيود التاج البريطاني. بدأت الحكومة الأمريكية الجديدة سياسة منهجية للاستيلاء على الأراضي الهندية عبر معاهدات جائزة أو بالحرب المباشرة. إعلان الاستقلال الذي نادى بحقوق الإنسان استثنى الهنود بشكل ضمني، واعتبرهم أممًا أجنبية معادية أو عوائق داخلية.

الهنود كانوا ضحايا مرتين، أولاً من الاستعمار الأوروبي

المباشر، وثانياً من الدولة الجديدة التي ورثت هذا الاستعمار وطورته بأسلوب أمريكي خاص. قادة الثورة الأمريكية مثل واشنطن وجيفرسون، الذين تحدثوا عن الحرية، كانوا يملكون خططاً واضحة لإزالة الهنود أو استيعابهم قسراً. الحرب التي ولدت أمريكا ولدت في نفس الوقت مأساة مستمرة للشعوب الأصلية، جعلت من عيد الاستقلال الأمريكي يوم حداد عليهم.

## الفصل الثلاثون

### الترحيل والاستيعاب القسري والاعتذار

في القرن التاسع عشر، وصلت مأساة الهنود الحمر إلى ذروتها مع سياسات الترحيل القسري والاستيعاب الثقافي. قانون إزالة الهنود لعام 1830 في الولايات المتحدة أجبر القبائل الشرقية على التخلي عن أراضيها والانتقال إلى إقليم أوكلاهوما في رحلة شاقة عرفت بدرب الدموع، حيث مات الآلاف من الجوع والبرد والمرض في الطريق. تم كسر روح القبائل، وحبست

في محميات نائية فقيرة، بعيداً عن أراضيهم المقدسة ومصادر رزقهم.

تلا ذلك عصر مدارس الإقامة الداخلية في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين، التي هدفت إلى قتل الهندي لإنقاذ الإنسان، حيث تم انتزاع الأطفال من عائلاتهم قسراً، ومنعوا من التحدث بلغاتهم أو ممارسة تقاليدهم، وعرضوا لعقوبات قاسية لتذويب هويتهم الأصلية وصهرهم في القالب الأبيض. كان الهدف محو الثقافة الهندية تماماً من الوجود، في محاولة للإبادة الثقافية التي توازي الإبادة الجسدية.

في القرن العشرين، بدأ بصيص من الأمل مع حركات الحقوق المدنية ونضال الهنود أنفسهم للحصول على الاعتراف بحقوقهم. حصلت القبائل على درجات من الحكم الذاتي، وعادت بعض الأراضي، وبدأت الجهود لإحياء اللغات والثقافات. في عام 2009، قدمت الولايات المتحدة اعتذاراً رسمياً عن المعاملة السيئة وانتهاك الحقوق للسكان الأصليين، تلاه اعتذار من كندا ودول

أخرى، لكن هذه الاعتذارات جاءت متأخرة جداً ولا تعيد الموتى ولا تمحو جروح القرون.

اليوم، لا يزال الهنود الحمر يواجهون تحديات كبيرة من فقر وبطالة ومشاكل صحية، لكنهم صمدوا وبقوا. وجودهم هو انتصار للإرادة البشرية على محاولات الإبادة، وشهادة حية على أن الحضارة لا تموت بموت أفرادها بل بانتهاء قيمها، وقيمهم لا تزال حية تناضل من أجل العدالة والاعتراف.

## الختام

وبعد أن طويينا صفحات هذا العمل الضخم الذي ضم ثلاثين فصلاً من المأساة والعظمة، نقف وقفة تأمل أمام مصير شعوب كانت سيدة قارتين، ثم أصبحت في ظرف قرون قليلة هامشياً في تاريخ كتبته يد غيرها. إن قصة الهنود الحمر ليست مجرد سرد لأحداث الماضي، بل هي مرآة تعكس الوجه المظلم للطبيعة البشرية

حين يغلب الجشع والعنصرية على العقل والضمير. لقد رأينا كيف بنوا حضارات عظيمة بالعلم والزراعة والهندسة، وكيف هدمت هذه الحضارات بالمرض والسيف والخدعة.

إن الدرس الأهم من هذا التاريخ هو أن القوة الغاشمة قد تنتصر في المدى القصير، لكن الحق والعدالة هما اللذان يبقيان في ذاكرة الأمم. الاعتذارات الرسمية المتأخرة لا تعيد ما ضاع، لكنها خطوة ضرورية نحو الاعتراف بالخطأ وتصحيح المسار للمستقبل. يجب أن نتعلم من مأساة الهنود الحمر أن التنوع الثقافي هو ثروة البشرية، وأن محاولة صهر هذا التنوع في بوتقة واحدة بالقوة هي جريمة ضد الإنسانية.

نأمل أن يكون هذا الكتاب قد وفى جزءاً بسيطاً من حق هذه الشعوب في أن تُروى قصتهم بحيادية وعمق، وأن يكون صوتاً ينادي بالعدل والإنصاف للأجيال الحالية من السكان الأصليين الذين لا يزالون يناضلون من أجل كرامتهم. إن تاريخهم هو تاريخنا جميعاً،

وجراحهم هي جراح الضمير الإنساني الذي يجب أن  
يظل يقظًا أبدًا.

والله نسأل أن يجعل هذا العمل صدقة لمن ضاع  
حقهم، وعبرة لمن يعتبر، إنه نعم المولى ونعم النصير.

الفهرس

الإهداء

التقديم

الفصل الأول هجرة الماموث وبداية الرحلة نحو المجهول

الفصل الثاني الوصول إلى الأمريكتين والانتشار في  
القارتين

الفصل الثالث التطور الأول والثاني وبداية التحضر

الفصل الرابع العصور القديمة المبكرة واكتشاف الزراعة

الفصل الخامس بداية التواصل والتعارف بين القبائل

الفصل السادس حضارة المايا عبقرية الفلك والرياضيات

الفصل السابع عصر الميسيسيبي ومدن التلال  
العظيمة

الفصل الثامن حضارة الأزتيك إمبراطورية الدم والذهب

الفصل التاسع حضارة الإنكا سادة جبال الأنديز

الفصل العاشر حضارات أمريكا الشمالية المتنوعة

الفصل الحادي عشر من أول من اكتشف الأمريكتين  
الحقيقة قبل كولومبوس

الفصل الثاني عشر الفايكنج والأمريكتين مغامرة قصيرة  
الأمم

الفصل الثالث عشر المسلمون واكتشاف أمريكا جدل  
التاريخ

الفصل الرابع عشر العالم الإسلامي وطرق التجارة  
ودافع الاكتشاف

الفصل الخامس عشر ظهور كريستوفر كولومبوس  
الرجل الذي غير العالم

الفصل السادس عشر أول رحلات كولومبوس والصدمة  
الأولى

الفصل السابع عشر انتشار الأمراض الطاعون الخفي

الفصل الثامن عشر ثالث ورابع رحلات كولومبوس  
والسقوط

الفصل التاسع عشر اكتشاف أوروبا للعالم الجديد  
وسباق الذهب

الفصل العشرون ماذا تريد أوروبا من الأمريكتين

الفصل الحادي والعشرون بداية نشر الأمراض ونهاية  
حضارة الأزتيك

الفصل الثاني والعشرون نهاية حضارة الإنكا والخدعة  
الإسبانية

الفصل الثالث والعشرون الاستيطان والاستعباد نظام  
العبودية المقنع

الفصل الرابع والعشرون حرب الملك فيليب والصراع في  
نيو إنجلاند

الفصل الخامس والعشرون تسلسل مرعب للأحداث  
موجة الإبادة

الفصل السادس والعشرون استمرار الغزو الأوروبي  
والتوسع غرباً

الفصل السابع والعشرون الحرب الفرنسية الهندية

وصراع الإمبراطوريات

الفصل الثامن والعشرون بريطانيا والهنود الحمر  
وسياسة الإلغاء

الفصل التاسع والعشرون حرب الاستقلال الأمريكية  
والهنود ضحايا مرتين

الفصل الثلاثون الترحيل والاستيعاب القسري والاعتذار

الختام

تم بحمد الله وتوفيقه

الدكتور محمد كمال عرفة الرخاوي

الباحث والمستشار والخبير والفقير والمؤلف القانوني  
والمحاضر الدولي في القانون